أبواب دُبي التاريخية وزخارفها

سعيد عبدالله الوايل

Austin Macauley Publishers™
London • Cambridge • New York • Sharjah

المقدمة

أبدى الإنسان منذ القدم اهتماماً كبيراً بمادة الخشب بسبب الفوائد والإمكانات الجمة التي منحتها إياه هذه المادة، التي تمكن بواسطتها من صنع الكثير مما كان يحلم به من أدوات ومشغولات خشبية كانت خير معين له في تسيير شؤون حياته، ومع مرور الزمن وازدياد الذائقة الفنية وتنامي الحس الإبداعي لدى مختلف الشعوب، تطورت المشغولات الخشبية ودخلت عليها الكثير من التحسينات الوظيفية والجمالية، ساهم في ذلك النجاح تنوع الأخشاب وطواعيتها وقابليتها للتشكيل والنقش، حيث سجل عليها الإنسان رؤاه وتصوراته ومشاهداته لما حوله من مظاهر الطبيعة المختلفة، أسوة بباقي الفنون والمشغولات الفنية التي اهتم الإنسان بزخرفتها وتزيينها، كالمشغولات والأواني والقطع الخزفية الحجرية والمعادن والمنسوجات.

وقد ساهم بحث الإنسان الدؤوب عبر الأزمنة المختلفة لدى سائر الأمم والحضارات عن أفضل الطرق والأساليب في جعل البناء الذي يسكنه في توافق تام مع مختلف الظروف المناخية والاجتماعية، وإلى تكيف المبني مع الظروف المحيطة، والذي لعبت فيه الأجزاء والقطع الخشبية الدور الأكبر على اعتبار أنها الوسيلة التي تربط المبنى بالمحيط الخارجي، مما أدى لابتكارات وحلول عملية مهمة حققها الإنسان.

ويأتي هذا البحث ليسلط الضوء على الأجزاء والقطع الخشبية في العمارة التقليدية في دبي باعتبارها منجز إبداعي وإرث حضاري عظيم تحقق على هذه الأرض، عملت على تطويره أجيال من الحرفيين أخذت على عاتقها الرقي بهذه الحرفة بما يتوافق مع مختلف الظروف البيئية والاجتماعية والدينية، هذه الشريحة من الحرفيين هي التي اعتمد عليها الكاتب في بناء دراسته هذه، حيث أخذ عنهم من خلال لقاءات موثقة تاريخ حرفة النجارة وأصولها، وأنواع الأخشاب المستخدمة في النجارة ومميزاتها ومصادرها، والطرق التقليدية التي كانت متبعة في عمل الأبواب والشبابيك بأنواعها المختلفة، كذلك اهتم الباحث بدراسة الرموز والنقوش الخشبية التي حملتها تلك الأجزاء من حيث مصادرها ومسمياتها المحلية عند الحرفيين وأساليب النقش التي كانوا يستخدمونها والأجزاء التي اهتم الصناع بنقشها.

على امتداد سواحل الخليج العربي نشأت المدن والتجمعات السكنية على فترات زمنية مختلفة، فبعض المدن قامت على أنقاض أو بجوار مستوطنات قديمة مندثرة وبعضها قامت نتيجة لهجرات مختلفة من داخل شبه الجزيرة العربية أومن السواحل القريبة، ولقد نشأت تلك المدن والتجمعات السكنية متأثرة بعوامل بيئية ومناخية وظروف سياسية واجتماعية متقاربة، مما أعطى العمارة التقليدية في الخليج العربي طابعاً خاصاً ومميزاً اعتمد فيه أهل الحرفة على مهاراتهم وقدراتهم الذاتية والخبرات التي ورثوها عن أسلافهم مستفيدين كذلك من الأنماط والطرز العمرانية للحضارات المجاورة في بلاد فارس وبلاد ما بين النهرين والهند، وقد تزامنت مهنة البناء والتشييد في تطورها وازدهارها مع حرفة النجارة التي وفرت للمباني الأجزاء والقطع الخشبية الضرورية كالأبواب والشبابيك.

وقد وعى القائمون على شئون التراث المحلي أهمية البيئة العمرانية التقليدية وما تمثله من حصيلة معرفية وثقافية تحمل بين جنباتها الكثير من سمات الأصالة التي أبدعها الإنسان الخليجي، وإمكانية الاستفادة منها في خطط التنمية.

وعلى الرغم من وجود مشاريع الاهتمام بالتراث والحفاظ العمراني في كافة الدول العربية انطلاقاً من ذلك الإحساس بدور المناطق التراثية في الحفاظ على الهوية والأصالة، إلا أن تلك الأماني غالباً ما ترتطم بالبيروقراطية المعتادة للأجهزة الحكومية والإدارية، غير أن دبي تضعنا أمام تجربة متأصلة وفريدة، إذ يرينا العمل الإداري المنظم الناجح كيف ينمو ويتطور ليحقق قفزات كبيرة، تلك هي تجربة إدارة التراث العمراني في بلدية دبي، وكأن النجاح كتب ليلاحق هذه المدينة العربية بجهود أبنائها ورجالاتها المخلصين. ففي بداية التسعينيات أنشأت بلدية دبي وحدة ترميم المباني التراثية، حيث أدرجت جميع المباني التراثية تحت مظلة قسم المباني التاريخية في البلدية، الذي أخذ على عاتقه بداية مسؤولية ترميم المباني التراثية، وقام القسم بترميم أهم المعالم التراثية في المدينة، ولقد كانت البداية بسيطة ومتواضعة غير أنها من غير شك شكلت نقطة انطلاقة هامة نحو تحقيق الهدف العظيم الذي تحقق، بسبب وجود طاقات بشرية مخلصة وطموحة تفاعلت بشكل إيجابي كبير ووضعت نصب أعينها أهداف وغايات كبيرة وبعيدة رأيناها اليوم تتحقق على أرض الواقع.

إن السر الكامن وراء هذا النجاح يعزى لعدة أمور، أولها النظرة البعيدة المدى المدعومة ببرامج علمية واستشارات رفيعة المستوى، والاطلاع على أحدث التجارب والتقانات وتطبيق أفضلها، من دون إهمال للجانب المحلي والطرق التقليدية التي استعان فيها القائمون بحرفيين تقليديين، وإجراء المقابلات خصوصاً في مراحل التأسيس الأولى، واتباع أساليب علمية تحققت بخطط مدروسة ومنظمة كان أهمها تنظيم فعاليات محلية ودولية، كمؤتمر دبي للحفاظ العمراني، والندوات والمحاضرات والتي جلبت أسماء عالمية وخبرات أجنبية وعربية عززت الخبرة والمعرفة العلمية لدى المسئولين والمهتمين بشأن التراث العمراني المحلي، والتي على ضوئها تم إصدار المراجع والمطبوعات العلمية التي توثق لطرق وأساليب وتجارب عالمية في الحفاظ العمراني. وأصبحت تجربة دبي تجربة رائدة يحتذى بها وبإسهاماتها لكل من يريد الفائدة، وخصوصاً بإشراك قطاعات الدولة في هذا المضمار كالتربية والتعليم وتنظيم المسابقات الهادفة لخلق جيل واع بأهمية موروثه وقيمته الثقافية والحضارية. لقد أعيد الاعتبار للبيئة التقليدية في دبي، وأصبحت تلك المباني كبيت الشيخ سعيد آل مكتوم، وبيت التراث، ومنطقة الفهيدي، معالم حضارية وتراثية شامخة تضع الأجيال القادمة أمام أصالة ماضيهم وتراثهم. فدبي كانت في الماضي مركزاً تجارياً واقتصادياً مهماً جلب إليها العديد من القوميات من مختلف الحضارات المجاورة التي ساهمت في بناء حضارة هذه المدينة العربية الخليجية. إن تراث دبي العمراني يتسم بنكهة خاصة قد لا تتوفر في مدن أخرى؛ فهو مزيج فريد من عدة ثقافات وحضارات تعكس الأنماط العمرانية والزخرفية روح التسامح والقبول للآخر، هذا ما سوف نستشعره من خلال صفحات الكتاب، لذا كانت مدينة دبي محطة مهمة في طريقنا لرصد أهم معالم الأبواب والأجزاء والقطع الخشبية في العمارة التقليدية في الخليج العربي، والذي صدر منه حتى الآن ثلاثة أجزاء، الأول (الأبواب والنقوش الخشبية في عمارة الشارقة التقليدية) عام ٢٠٠٣، من إصدار دائرة الثقافة والإعلام بالشارقة، والثاني (الأبواب والنقوش الخشبية التقليدية في عمارة المنطقة الشرقية بالمملكة العربية السعودية)، من إصدار دائرة الملك عبد العزيز بالرياض، والثالث (الأبواب والنقوش الخشبية الإسلامية في المباني التاريخية في الخليج العربي) من إصدار

دائرة الثقافة والإعلام بالشارقة عام ٢٠١٤. إن تلك النفائس والتحف الفنية لم تكن مجرد طرز فنية وزخرفية جمالية منعزلة، بل هي فصول وحكايات تاريخية طويلة، حملت في طياتها الكثير من المعاني والرؤى والتصورات، ذات الدلائل الثقافية والحياتية التي استقاها الحرفي الشعبي من البيئة المحلية والحياة اليومية والظروف المحيطة، وعكست روح الإبداع والمغامرة أحياناً فهي رؤى بصرية رائعة تنطق بالإبداع.

إن الهدف الأساس من عملية حفظ وتوثيق الأجزاء والقطع الخشبية في العمارة التقليدية في دبي لا يصب فقط في خانة حفظ وتوثيق التراث العمراني، بل يتعدى هذا المفهوم إلى مرحلة أكثر استيعاباً وفهماً وتواصلاً مع هذا الإرث الثقافي العظيم، يصل إلى إعادة تأهيل هذا الفن الأصيل في الحياة الاجتماعية المعاصرة، والاستفادة منه في عمليات التنمية الشاملة، وخطط الدولة الرامية للنهوض بكافة القطاعات بدعم من البيئة التراثية والثقافية، وإشراكها في البرامج والفعاليات الثقافية والاجتماعية والسياحية، وماله من أثر إيجابي في التوجهات الاقتصادية والرواج السياحي والاقتصادي الذي تسعى له معظم الدول في العصر الحديث، والذي يستمد أهم مقوماته من الموروث الثقافي والحضاري.

توجد بعض الكتب القيمة التي تعرضت للأبواب والشبابيك في العمارة التقليدية، وهي بلا شك تحوي معلومات قيمة، لكن معظمها لم يكن فيه التركيز الكافي لإشباع هذا الموضوع على اعتبار أنها كتب تناولت كافة جوانب وعناصر العمارة التقليدية، وثمة نوعية من الكتب المصورة التي تعرض لتجربة مصوِّر أو رحَّالة في المدن التي زارها، ومنها مجموعة حقيقة رائعة وتستحق الإعجاب؛ ففيها قراءة بصرية متأنية لأدق التفاصيل في الحياة اليومية ونشاط السكان وطرز العمارة، غير أن تلك الكتب غير معنية بالبحث والتحليل والوصف، وهو الدور الذي أخذناه على عاتقنا في هذا الكتاب وتحملنا عناء البحث عن المعلومة من مصادرها الأصيلة ومن ذاكرة الحرفيين الذين أبدعوا هذه الصنعة، ولا ندعي أننا بلغنا الهدف في هذا البحث، لكننا بلا شك بذلنا جهداً كبيراً ومضنياً.

ينقسم هذا الكتاب إلى ستة أبواب، في الباب الأول عرض لمحة تاريخية موجزة لتاريخ دبي وأهم المكتشفات الأثرية ومناطق الاستيطان البشري التي تم التنقيب فيها، ودلت على الأهمية التاريخية لمدينة دبي منذ عصور ما قبل التاريخ، كما في ساروق الحديد

والقصيص والجميرا، بعدها استعراض عام لأهم الأحداث التاريخية التي مرت بها دبي في العصر الحديث ابتداءً بالتواجد البرتغالي مع بداية القرن السادس عشر، مروراً بالوصاية البريطانية على المنطقة، إلى مرحلة الاستقلال في ظل الاتحاد المبارك الذي جمع الإمارات السبع، والنهضة الحديثة التي سارت عليها دبي. ثم نتعرف على بيئة ومجتمع دبي من حيث الأصول التاريخية للسكان ونشاطهم، وأهم الحرف التي زاولوها، والمؤثرات البيئية فيها.

في الباب الثاني يتطرق الكاتب لموضوع الأخشاب ودورها الكبير في الحياة الاجتماعية وأهميتها، مع عرض مفصل لأهم الأشجار المحلية والمستوردة المستخدمة في النجارة، ومسمياتها وخصائصها التي عرفت بها، واستخداماتها والأماكن التي تجلب منها، مع استعراض لحرفتي صناعة السفن التقليدية والنجارة على اعتبار القواسم المشتركة بينهما، وأشهر الحرفيين الذين عملوا في هاتين الحرفتين، أما الجزء الثاني من هذا الباب فهو مخصص للعمارة التقليدية في دبي؛ فهي البيئة التي احتضنت الأجزاء والقطع الخشبية، وفيه يستعرض الكاتب تنوع الطرز العمرانية التقليدية والمؤثرات المختلفة التي دخلت عليها، وأهم المناطق والمباني التاريخية المعروفة في دبي.

الباب الثالث مخصص للحديث عن الأبواب التقليدية في دبي من حيث أنواعها ومسمياتها والأجزاء التي تتكون منها والأخشاب والمواد التي صنعت منها تلك الأجزاء، مع شرح للطرق المستخدمة عند النجارين لتوصيل الأخشاب، يليها تعريف بالشبابيك التقليدية في دبي وتنوعها وخصائص كل نوع وتكوينه والأجزاء التي تلحق به.

في الباب الرابع عرض شامل للنقوش والزخارف الخشبية التقليدية في دبي، مع ملامح تاريخية لها ونبذة عن الأشكال والعناصر الزخرفية المحلية، وخصائص الزخارف الخشبية المحلية، وتتبع المراحل التي مرت بها تلك الزخارف، والأساليب المتبعة محلياً في نقش الخشب، كالنقش الغائر والبارز والمائل، وكذلك الفرق بين الزخارف لهندسية والنباتية.

أما الباب الخامس فهو مخصص للرموز والعناصر الزخرفية وأهميتها والأسماء المحلية التي يطلقها الحرفيون على تلك العناصر، مع توضيح بالرسم والصورة لشكل هذه

العناصر والتغيرات التي تلحق بها، إضافة للنقوش الكتابية التي سجلت على بعض الأبواب.

وفي الباب السادس والأخير نتطرق لإشكالية الحفاظ على الأبواب والأجزاء الخشبية، من حيث أهمية هذا الجانب والأضرار التي تتعرض لها الأبواب والأجزاء الخشبية وجهود حكومة دبي في الحفاظ على طابع المدينة التاريخي، كذلك دور إدارة التراث العمراني في بلدية دبي في ترميم وحفظ الأبواب والشبابيك التقليدية.

في الختام لا يسعنا إلا أن نقدم جزيل الشكر لكل من ساعدنا في إتمام هذه الدراسة، ونخص بالشكر المهندس أحمد محمود مدير إدارة التراث العمراني في بلدية دبي، والمدير السابق المهندس رشاد بوخش، ولكافة الأخوة في إدارة التراث العمراني وجمعية الإمارات للتراث العمراني، كما أننا ندين بالفضل لآبائنا الحرفيين والنجارين الذين ساعدونا كثيراً في التعرف على حرفة النجارة التقليدية في دبي فلهم منا جزيل الشكر.

سعيد عبد الله الوايل
الأحساء